الفصل الأول

الوضع الجغرافي السياسي الاجتماعي والديني في فلسطين منذ عام ٥٣٨ ق.م حتى بعثة المسيح

تشير كافة الدراسات التاريخية والجغرافية وكذلك المعطيات الاجتماعية إلى أن فلسطين قبل مولد السيد المسيح عليه السلام جزء طبيعي من سوريا الكبرى التي أُطلق عليها بلاد الشام.

وتمتاز بموقع جغرافي مهم، حيث تقع في ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا. وحيث البحر المتوسط الذي يصلها غرباً بأوروبا. وبشكل عام فهي على الطريق الذي يصل بادية الشام والجزيرة العربية بالبحر المتوسط. ومن الطبيعي أن يلعب الموقع الجغرافي دوراً تاريخياً مهماً لفلسطين. فهي تقع على مرمى الإمبراطوريات القديمة كمصر والبابليين والفرس واليونان والروم.

استولى الفرس على فلسطين عام ٥٣٨ ق.م. وبدءاً من هذا التاريخ بدأ التسرب اليهودي الثاني إليها[١] إذ أطلق الفرسُ اليهودَ ليتسربوا إلى فلسطين بعد أن أمضوا في السبي البابلي مدة سبعين عاماً.

وتثبت المصادر التاريخية أن اليهود ساعدوا الملك كورش الفارسي في حربه ضد البابليين مما جعله يؤيد تسربهم إلى فلسطين، خاصة أنهم زوجوه من أستير اليهودية التي كانت تؤثر فيه وفي توجهاته السياسية والتوسعية والتصفوية[٢].

والواقع أن قسماً من اليهود تسرب إلى فلسطين بينما آثرت الأغلبية البقاء في العراق والذهاب من جديد إلى مصر.

حاول سكان جنوبي الشام ـ فلسطين ـ الذي كان يقطنه آنذاك الفينيقيون والآراميون والفلسطينيون أن يقاوموا هذا التسرب لأنهم وجدوا فيه خطراً

---

(١) تم التسرب الأول في زمن يشوع حوالي ١٢٥٠ ق.م حسب قول التوراة.

(٢) ورد ذلك في سفر إستير من التوراة.

يتهددهم من جديد. إلا أنهم فشلوا جزئياً بسبب سلطة الفرس العسكرية على البلاد. وتذكر التوراة أن اليهود الذين تسربوا إلى فلسطين بعد السبي البابلي وجدوا معارضة شديدة من قبل سكان البلاد الأصليين في تشييد هيكل جديد في القدس. وظلوا يحاولون تشييد هذا الهيكل مدة عشرين عاماً.

واستعمل كورش اليهود المتسربين إلى فلسطين عملاء وجواسيس يراقبون تحرك المصريين ويقدمون المعلومات للفرس كي يسهلوا لهم احتلال أراضٍ من الإمبراطورية المصرية وما جاورها.

وقد كانت جميع بلاد الشام مع قبرص تؤلف الولاية الخامسة من الإمبراطورية الفارسية ومركزها دمشق. وقسمت هذه الولاية إلى خمسة أقسام، منها قسم لواء العربية ويعني بذلك فلسطين وشرقي الأردن، والصحراء المتاخمة لها بما فيها بادية الشام. وكان حكامها من الوطنيين أهل البلاد ولهم سلطة واسعة في إدارة الشؤون الإدارية والمحلية[1]. وحكم الفرس حوالي مائتي عام آخرها سنة ٣٣٢ ق.م. ثم خضعت إلى حكم الاسكندر المقدوني عام ٣٣٠ ق.م.

مع قدوم الاسكندر إلى فلسطين رحب اليهود به وبجيوشه ونفضوا أيديهم من الفرس وفي عام ٣٢٣ ق.م مات الاسكندر مخلفاً وراءه قادة يختصمون. فانقسمت دولته وخضعت فلسطين للبطالسة منذ عام ٣٠١ ق.م حتى عام ١٩٨ ق.م. ثم ما لبثوا أن تراجعوا أمام السلوقيين وخضعت فلسطين لهم.

وفي عهد البطالسة حاول بطليموس الرابع بعد إنتصاره في موقعة رفح عام ٢١٧ ق.م نشر المدنية اليونانية بين اليهود. ولما أبوا عليه زاد في الضرائب المفروضة عليهم ولما انتقل الحكم إلى السلوقيين استمر هؤلاء في التشديد على اليهود لقبول آدابهم وحضارتهم مما أدى إلى ظهور حزبين يهوديين. حزب

---

(١) مصطفى مراد الدباغ. بلادنا فلسطين حـ١، صفحة ٥٨ ـ ٥٨٧.

اقتدى باليونان وأخذ يقتبس جميع مظاهر الحياة اليونانية من آراء جديدة وحرية. وحزب آخر كان يقبح ذلك ويتعصب لعقائده الدينية القديمة ويتشبث بالبقاء على أساليب الحياة اليهودية التي درج عليها[1].

ولما ظهرت روما وتمكنت من الانتصار على أعدائها أخذت العلاقات تنشأ بينها وبين المكابيين اليهود الذين ثاروا ضد اليونان وأسسوا لأنفسهم دويلة صغيرة في بعض أجزاء فلسطين. بدأت هذه العلاقات بمصادقة المكابيين للرومان. ثم تطورت إلى سيطرة الرومان على المكابيين، وانتهت باستيلاء الرومان على فلسطين. كما استولوا على الأقسام الأخرى من بلاد الشام. وأخيراً وفي عام ٦٤ ق.م تمكن القائد الروماني بومبي أن يضع حداً نهائياً للمملكة السلوقية ويستولي على سوريا.

وتجدر الإشارة هنا أنه في عهد حكم السلوقيين لديار الشام أنشأ العرب فيها حكومتين، الإيطورية في البقاع ولبنان وشمالي فلسطين، والأنباط في البتراء. وتذكر صفحات التاريخ أن الإيطوريين كانوا من العرب العدنانية، وقد حاربوا اليهود عندما أقاموا أول أمرهم في الأردن. ثم اتجهوا نحو لبنان وأسسوا لأنفسهم دولة.

ثم شمل سلطانهم البقاع وحوران والجولان وفلسطين الشمالية وكانت عاصمتهم مدينة عنجر الحالية وعرفوا ببأسهم وحذقهم في رمي السهام. توغلوا في لبنان الشمالي حتى وصلوا إلى طرابلس التي أضحت مركزاً لهم في هذه الجهات. وقد أُخضعوا للرومان وألحقوا دولتهم بسوريا[2].

وعندما قدم الرومان إلى سوريا واحتلوها وجدوا أن سوريا في قسمها

---

(١) مصطفى مراد الدباغ. بلادنا فلسطين حـ١، صفحة ٥٩٩.

(٢) مصطفى مراد الدباغ. بلادنا فلسطين حـ١، صفحة ٦٠٢.

الجنوبي كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام قسم تحت نفوذ المكابيين. وقسم تحت حكم العرب الأنباط وقسم يعرف بالمدن اليونانية.

وقد ترك الرومان حكام البلاد الوطنيين يدبرون شؤون مقاطعاتهم وكان فيهم زعماء من العرب يحكمون بعض المدن في شمالي سوريا. وكان على جميع المسؤولين في المدن والمقاطعات أن يرجعوا إلى الحاكم العام في أمورهم السياسية والقضائية وأن يدفعوا الضرائب المطلوبة وأن يقدموا الجند عند الحاجة[1].

وقبل مولد المسيح عليه السلام بحوالي خمسين عاماً بدأ نفوذ المكابيين يزداد ويتسع حتى أن روما منحت سيد فلسطين الحقيقي المدعو أنتيباتر صفة المواطنة الرومانية بعد أن ساعدهم في حربهم ضد المصريين الذين حاربوا يوليوس قيصر آنذاك ففي عام ٤٨ ق. م أصبح أنتيباتر نائباً للإمبراطور على فلسطين مع بقاء هركانوس رئيساً للكهنة ورئيساً لطائفته في الظاهر.

وفي عام ٣٧ ق. م دخل الرومان القدس بعد قلاقل حدثت هناك وعيّنوا هيرودس بن أنتيباتر ملكاً على اليهود. وهو آدومي أمه عربية نبطية. وقد قضى على حكم المكابيين. وفي عهده وطد حكم الرومان وبنى مدينة نابلس من جديد إضافة لعدد من المدن مثل قيسارية وزينها بالمسارح والملاعب والهياكل والتماثيل. وظل قائماً على حكم فلسطين حتى مولد المسيح عليه السلام. وفي عهده شيدت عدة مدن بأسلوب حضاري متقدم على الرغم من أن اليهود كانوا يكرهونه بسبب كونه عربياً وليس من العبرانيين. لكنه استطاع دوماً أن يحدّ من غلوائهم وأحقادهم. خاصة أنه كان ذا مكانة خاصة عند الإمبراطور الروماني والرومان بشكل عام.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢٠ ـ ٦٢١.

وإذا نظرنا إلى الوضع الاجتماعي والسكاني لفلسطين قبل بعثة المسيح. وجدنا أن السكان كانوا يتشكلون من خليط متباين. ففي فلسطين ظل أهلها الكنعانيون يشكلون السكان الأصليين للمنطقة. وكان جل اهتمامهم ينصب على التجارة البحرية والزراعة. وهناك اليهود الذين قدموا من العراق بعد السبي البابلي وكانوا يسكنون في بعض المدن والقرى يزاولون تجارة الذهب والتجارة بشكل عام. وفي كافة مدن فلسطين وقراها كانت هناك حاميات رومانية يتشكل معظم سكانها من الجنود.

وقد انعكس الوضع الجغرافي والسياسي والاجتماعي على الوضع الاقتصادي حيث نرى أن الأنباط لعبوا الدور التجاري الأول في ذاك الوقت. وكانت فلسطين تصدر إلى مصر النبيذ والعسل والزيت والتين إضافة للقار ـ الزفت ـ والبخور والزعفران والعبيد وجلد النمر. وكان للحروب الكثيرة المتتالية أثر كبير في تغذية أسواق الرقيق بما تدفق إليها من أسرى الحروب.

وفي زمن البطالمة كانت توجد ثلاثة أنواع من العملة المتداولة في فلسطين من الذهب والفضة والبرونز. أما العملة الفضية فكانت هي القاعدة الأساسية وأكثرها شيوعاً وقد تقدمت الصناعة والزراعة في فلسطين في العهد اليوناني تقدماً ملموساً. وقد نشطت زراعة الكرمة والزيتون والفواكه والخضار بالتحسين والتقدم.

وكانت فلسطين تأتي بعد مصر في تموين الأسواق العالمية بالبردي الذي يصنع منه الورق. وبشكل عام كان جميع سكان سوريا آمنين من أي ضيق يتعلق بضرورات الحياة بسبب الوفرة الكبيرة التي تقدمها بلادهم.

وقد اشتهر في عهد اليونان عدد من الشعراء مثل الشاعر (ملاجر) ١٤٠ ـ ٧٠ ق.م وكان عربياً آرامياً أتقن اللغتين الفينيقية واليونانية. وكذلك اشتهر الفيلسوف أنطيوخس العسقلاني الذي أسس عدة أكاديميات في الإسكندرية وأثينا.

والواقع أن فتح الإسكندر لبلاد الشام لم يغير في البلاد شيئاً. وظل سكان سوريا بما فيها فلسطين يتشكلون من الآراميين والكنعانيين العرب ومن بعض اليهود ومن بقايا الأمم الفاتحة كالآشوريين والمصريين والبابليين والحثيين والفرس وغيرهم[1].

أما الحياة الثقافية فقد تميزت أولاً بانتشار اللغة الآرامية منذ القرن السادس ق.م وحتى نهاية القرن الثامن بعد المسيح عليه السلام. وهذه اللغة كانت لغة السيد المسيح حيث كانت اللغة التي يتفاهم بها شعوب الأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد من إيران شرقاً إلى سوريا غرباً ومن آشور شمالاً إلى فلسطين جنوباً. ولم تزل اللغة الآرامية حتى الآن لغة الطقوس الكنسية لمعظم نصارى الشرق الأدنى من نساطرة ويعاقبة وسريان وكاثوليك وموارنة[2].

وقد اعتنق الآراميون المسيحية منذ القرن الأول للميلاد واختاروا اسم سريان سوريين تماشياً من الاسم الآرامي الذي كان رمزاً للوثنية.

ويمكن القول بأنه تساويت في فلسطين منذ أقدم الأزمنة التاريخية حتى اليوم ثلاث لغات وهي الكنعانية والآرامية والعربية الحديثة[3].

---

(١) مصطفى الدباغ بلادنا فلسطين صفحة، ٦٠ سبق ذكره.

(٢) تتألف الطائفة المارونية من عناصر لبنانية مسيحية مختلفة أما الجراجمة الذين كانت منازلهم في جبل خوروس بدأوا يتسللون إلى سوريا منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان عليها وفي عام ٦٨٥م اجتاحوا لبنان واستقروا فيها. وبعد اندماجهم بسكانه من أبناء دينهم النصارى أصبحوا يعرفون بالمردة وأسفر الاندماج عن قيام الطائفة المارونية وتنسب إلى قديسها مارون الذي عاش في أواخر القرن الرابع ومات حوالي ٤١٠م في شمال سوريا.

(٣) مصطفى الدباغ. بلادنا فلسطين صفحة ٦١١ مر ذكره.

الحياة الدينية لسكان فلسطين قبل بعثة المسيح عليه السلام

قلنا إنه تعاقبت على احتلال فلسطين عدة إمبراطوريات وهي الفرس واليونان والرومان. وقلنا إن سكان فلسطين كانوا من الكنعانيين وبعض اليهود. وقد حملت كل إمبراطورية عقائدها الدينية إلى فلسطين كما يفعل كل غازٍ يغزو أي بلد من البلدان.

فالفرس الذين أتوا إلى فلسطين في منتصف الألف الأخيرة قبل ميلاد المسيح حملوا معهم عدة عقائد وكانت عقيدتهم الرئيسية هي عبادة النار والإيمان بإلهين للخير والشر كما أنهم تعاطفوا مع عقائد اليهود الذين كانوا مسبيين في بابل وساعدوهم على التسرب إلى فلسطين.

ولا تعطينا المصادر التاريخية شيئاً عن فرضِ الفرس لعقائدهم على من كان يسكن فلسطين وهذا يفسح لنا المجال لنقول إن عقائد الكنعانيين سكان الأرض الأصليين ظلت كما هي. أي أنها تؤمن بالإله إيل والإله بعل والإلهة عناة. وبمعنى آخر لم يطرأ جديد على ديانة الكنعانيين حتى هذا الوقت.

وقد سلطت الدراسات أضواءها على عقائد اليهود الذين عادوا يتسربون إلى فلسطين ومنذ بداية هذا التسرب حتى بروز المسيح عليه السلام تقلبت الأمور العقيدية عند اليهود وشهدت حوادث كثيرة وتقلبات متعددة.

تقول المصادر التوراتية وكذلك المصادر المسيحية المستندة على ما جاء به التوراتيون بأن اليهود عندما بدأوا التسرب الثاني حاولوا إصلاح ما يسمى الهيكل وتقديم الذبائح، لكنهم وجدوا أنفسهم وسط شعوب كثيرة ومتنوعة

وخاصة في السامرة ومدن الشمال التي امتلأت بأعداد كبيرة من جنسيات وبلاد مختلفة. وتقول هذه المصادر إن من تواجدوا في السامرة ـ نابلس ـ والمدن الشمالية اندمجوا مع الشعوب الأخرى بسرعة أكثر مما حدث لليهود في منطقة القدس والخليل.

حاول بعض اليهود التمسك بالناموس وتطبيقه في حياتهم العملية ولذلك تعرضوا حسب ما تقول تلك المصادر لمضايقات عنيفة من قبل اليونان والرومان الذين أتوا بعد الفرس وفي زمن الآشوريين والبابليين ثم الفرس واليونان انتشرت في فلسطين العبادات الوثنية وشيدت في كل مدن فلسطين معابد وهياكل لآلهة عديدة. وقد ضعفت ديانة يهوه واضطهدت ولم تعد في كثير من الأحيان ديانة من الديانات الأخرى الموجودة في البلاد.

وتذكر المصادر أنه في عام ١٦٧ ق.م قام انطيخوس الرابع بوضع تمثال للإله جوبيتر الألومبي في المكان الذي كان فيه مذبح التقدمة. وبهذا العمل وحسب رأي اليهود أنه نجّس الهيكل وأهان الإله القدير وقد تحدث دانيال بنبوءة من نبوءاته عن ذلك وفي عام ٤٠ ق.م أمر الإمبراطور الروماني جاليجولا بوضع تمثال روماني في ما يسمى الهيكل وقد أصدر الإمبراطور أنطيخوس قراراً يمنع فيه اليهود من تقديم الذبائح أو العبادة ليهوه[١].

وفي عام ١٦٦ فرض الإمبراطور على اليهود عدم ممارسة أي طقوس أو شرائع دينية وأصدر أمراً بعدم ختن الأطفال وأرغم اليهود على أكل الخنزير وألغيت عبادة يهوه وفرض تقديم الذبائح للإله زايوس الألومبي.

وفي سنة ١٤٠ ق.م حاول بعض اليهود تعيين رئيس للكهنة يدعى يوناثان ولأنه ليس من نسل هاروني رفض يهود آخرون ذلك. وهذه الحادثة ولّدت حركة

---

(١) القس الدكتور حنا الخضري. تاريخ الفكر المسيحي صفحة ٧٠ المجلد الأول.

أو طائفة سُميت فيما بعد بطائفة الفريسيين (الانفصاليين) وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم الأتقياء. وخرجت عنهم طائفة يهودية اعتقدت أن العالم المعاصر وقتئذ ضل الطريق الصحيح السليم فيجب الابتعاد عنه فذهب أتباع هذه الطائفة إلى وادي قمران حيث كونوا جماعة كانت تقضي وقتها في الصلاة والتأمل والانتظار ويُطلق على هذه الجماعة الآسينيين الذين كنا نجهل الكثير عنهم قبل اكتشاف مخطوطات قمران. ويُظن أن عدد الآسينيين قد بلغ ٤٠٠٠ عضو كانت غالبيتهم في وادي قمران[١].

ويذكر أنه أثناء بدء بعثة السيد المسيح عين أحد الرومان واسمه كايوس إمبراطوراً على الدولة الرومانية وقد دعا نفسه إلهاً. وقد بطش باليهود بطشاً كبيراً. واتخذ لنفسه أماكن عبادتهم في مدن كثيرة. وبدأها بمدينة الإسكندرية. فملأ هذه الأماكن بتماثيل وصور لشخصه. أما الهيكل في القدس فقد غيره إلى هيكل لنفسه ليدعى هيكل جوبيتر (المشتري) المنظور كايوس الأصغر[٢].

وتقول المصادر أنه لما أرسل بيلاطس إلى اليهودية والياً من قبل طيباريوس حمل إلى القدس ليلاً تماثيل للإمبراطور دعيت رموزاً. وفي اليوم التالي أحدث هذا أعظم اضطراب بين اليهود لأن القريبين اضطربوا من المنظر لما رأوا نواميسهم تُداس بالأقدام. وقد حلت باليهود مصيبة أخرى حسب ما يقوله المؤرخ اليهودي يوسيفيوس فيقول في ذلك: «بعد هذا أثار فتنة أخرى باستخدام الأموال المقدسة التي تدعى (قربان) لإنشاء قناة ماء طولها ثلاثمائة ستاديا. (أي ستة آلاف متر)».

وقد ادعى الألوهية في هذا العهد عدد من الكهنة والرجال وكان أحدهم

---

(١) المصدر السابق صفحة ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) يوسا بيوس القيصري. تاريخ الكنيسة ترجمة القمص مرقص داود صفحة ٦٠.

يدعى سيمون وهو سامري من قرية جت وقد اتبعه بعض الناس بما قام به من أعمال سحرية مستعيناً حسب قول المصادر المسيحية واليهودية بالشياطين وقد اعتبر في مرحلة من المراحل إلهاً. وصار كل السامريين تقريباً وقليلون حتى من الأمم الأخرى يعترفون به ويعبدونه كالإله الأول. وجالت معه في ذلك الوقت امرأة تدعى هيلانة كانت سابقاً عاهرة في مدينة صور من أعمال فينيقية وهم يدعونها الفكرة الأولى التي برزت منه[1].

ويتضح أن اليهود وبعض الرومان قد اتبعوا هذاالمتأله سيمون ومنذ عصره حتى بعد انتشار النصرانية في أوروبا كان الذين اتبعوه قد تظاهروا بفلسفة المسيحية على أنهم بعد ذلك رجعوا ثانية لخرافات الأوثان التي تظاهروا بأنهم نبذوها وصاروا يخرون أمام صور وتماثيل سيمون نفسه وهيلانة السابق ذكرها التي رافقته. ويتجاسرون على عبادتها بالبخور والذبائح والسكائب.

وقد حدثت نزاعات بين كهنة اليهود أنفسهم وبينهم وبين بقية الجماهير اليهودية وبلغت وقاحة الكهنة وجرأتهم حداً بعيداً حيث تجاسروا على إرسال خدمهم إلى البيادر لاغتصاب العشور المستحقة للكهنة وهكذا صار الفقراء من الكهنة يتضورون جوعاً[2].

وتقول المصادر التاريخية إنه عند بدء بعثة السيد المسيح ظهر في القدس نوع معين من اللصوص كانوا يقتلون كل من لقوه نهاراً في وسط المدينة لأنهم كانوا يختلطون بالجماهير سيما في الأعياد ويطعنون أعاظم الناس بسيوف قصيرة كانوا يخفونها تحت ملابسهم. فإذا ما سقطوا صار القتلة أنفسهم وسط الذين يُظهرون استياءهم فلا يفتضح أمرهم بسبب الثقة التي نالوها من الجميع. وقد

---

(١) المرجع السابق ص٦٨.

(٢) المرجع السابق صفحة ٨٠.

قتل هؤلاء اللصوص عدداً من كهنة اليهود منهم يوناثان رئيس الكهنة.

وفي هذا العهد أيضاً ظهر بعض الذين ادعوا النبوة. ومن هؤلاء متنبئ مصري أوحى للناس أن يؤمنوا به كنبي. وجمع نحو ثلاثين ألفاً ممن خدعهم واقتادهم من البرية إلى جبل الزيتون الذي تأهب للدخول منه إلى القدس عنوة وتحطيم الحامية الرومانية.

والواقع أن عقائد اليهود قبل بعثة المسيح وبعدها مباشرة كانت مضطربة جداً. فهي لم ترتبط حتى بتعاليم كهنة العقيدة اليهودية. فتارة يغشاها السحر والأساطير وتارة يقودها مدعٍ للألوهية وتارة أخرى يقودها ساحر يخدع جماهيرها بأنه نبي.